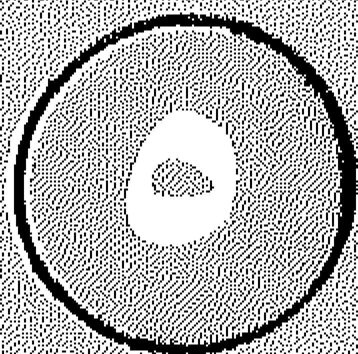
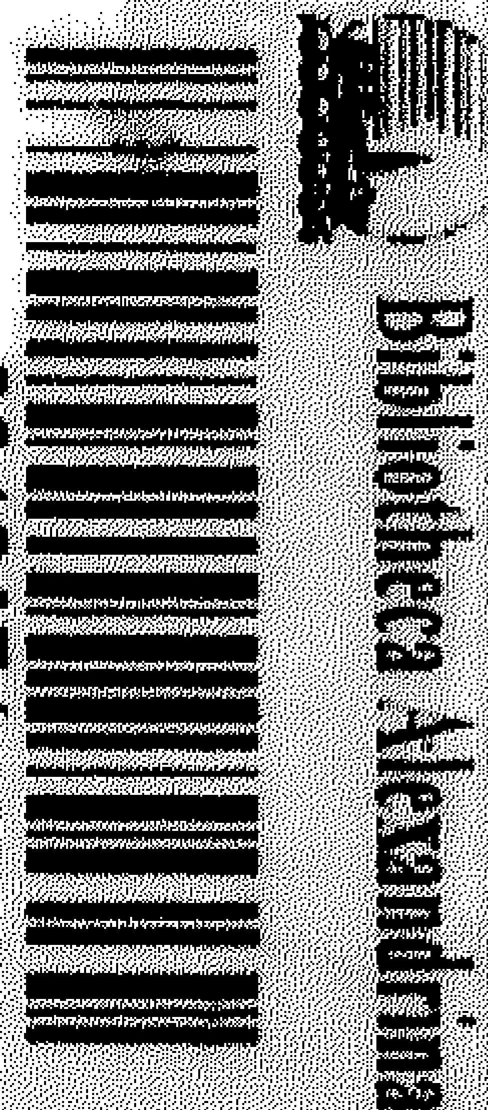
علماء
عاشوا
بالأمل



هيلين كيلر

الإرادة والمستحيل



بقلم: كريمة متولى

دار المعارف

هيلين كيلر

الإرادة والمستحيل

بقلم : كريمة متولى

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

الناشر : دار المعارف ١١١٩ شارع كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع.

الناس عاجزون عن رؤية الخالق ،
وسماع صوته الأزلى . . فالأعمى
والمبصر . . الناطق والأخرس
متساوون فى ذلك . . ولكن
الإنسان السعيد هو الذى يشعر
بوجود الخالق ويسمع صوت
الحق بقلبه وفكره وحسه !

هيلين كيلر

ميلاد وطفولة

ضربت هيلين كيلر أروع مثل فى الشجاعة والإرادة البشرية فى القرن العشرين .. تلك الإنسانة الرقيقة التى حُرمت نعمة البصر ، وتعذر عليها النطق والسمع ، لكنها تغلبت على عاهاتها هذه ، وحملت على عاتقها رسالة حب ، ومشاركة إلى كل المرضى المحرومين .. تعينهم على تحمل آلامهم وشقائهم .

ولدت هيلين كيلر فى بلدة صغيرة فى إحدى المقاطعات الأمريكية ، وكانت طفلة جميلة ، تملأ الدنيا صياحًا ولعبًا .. تنمو كما ينمو الأطفال الأصحاء .. تلعب في براءة ومرح ..

تجرى وتقع ، تطارد الطيور ، وتسابق الفراشات .. تختبئ من القطط وتداعب ذيل الجرو الصغير .

حتى جاء اليوم الذى أصيبت فيه هيلين بمرض عضال بالمخ أدى إلى إصابتها بالعمى والصمم والبكم .

عانت الطفلة الصغيرة من الحرمان من نعمة البصر فعاشت فى ظلمة حالكة ، وصمت رهيب .

وحُرمت سماع صوت الأطيار .. وحفيف الأشجار ، وتعذر عليها النطق والتعبير عن إرادتها وأخص احتياجاتها ، وعاشت فى ظلام دامس يتشابه فيه كل شىء ، الليل والنهار ، النور والظلام .. الوحدة أو وجود الآخرين . .

عبرت هيلين عن هذه المرحلة من حياتها بقولها : « لا أذكر ما حدث لى مباشرة عقب مرضى ، ولكنى أذكر أننى كنت أجلس فى « حجر » أمى وأضم نفسى إلى صدرها .. ويداى تمسان كل شىء ، وترقبان كل حركة ، وشعرت أنه لابد لى من وسيلة اتصال بمن حولى ، فكنت أشيح بيدى « أى أذهب » ، وأشير « أى أقبل » وأرفعهما إلى أعلى كأنهما تمسكان بكوب « أى أحضرو لى ماء » ونجحت أمى فى

فهم لغتى ، واستطعت أن أفهم ما تريد منى أن آتى به ، فأصعد إلى الطابق العلوى ، وأعود حاملة ما تبغى .. وكانت لمسة واحدة لثوب أمى تجعلنى أدرك أنها فى طريقها للخارج .. وكنت مقتنعة أن أمى وصديقاتها يتفاهمن بتحريك شفاههن ، فحركت شفتى .. بدون جدوى ، فيغضبنى ذلك ويجعلنى أصرخ ، وأخبط فيما حولى إلى أن يتتابنى التعب والإرهاق ولكننى لن أنسى أبدا عندما كادت النيران تشتعل فى ثيابى عندما حاولت أن أجففها أمام الموقد »

ومرت خمس سنوات نسيت فيها الطفلة الرقيقة الكلمات القليلة التى تعلمتها فى طفولتها المبكرة .. كما نسيت البسمة وضحكات الأطفال .. وترك المرض بصماته على وجهها الجميل من الكآبة والعدوانية ، وتصارع بداخلها ذكاؤها الفطرى ، ورغبتها الجارفة فى معرفة ما يدور حولها ، وكشف المجهول والتفاعل مع بيئتها من جهة .. والإحساس بالعجز ، والقيد الرهيب من عدم القدرة على التعبير من جهة أخرى .. فأصبحت تثور وكأنما تريد تحطيم هذه القيود ، وتعاند .. مُوجهة جام غضبها إلى أى شىء أمامها فتحطمه فى شراسة حتى العروسة



كادت النيران تشتعل فى ثيابى عندما حاولت أن أجففها أمام المـوقـد

الصغيرة التى صنعتها لها خالتها لتلعب بها .. ضايقها ألا يكون لها عينان .. كأنما هى نفسها فتغضب .. وتعلو صرخاتها فلا تسمعها ، فتزداد ثورة وضيقًا .. كانت تدرك أن الآخرين يتخاطبون بأفواههم لا بأيديهم كما تفعل هى .. ولما حاولت التخاطب بالشفاه كانت تصدر أصواتًا وضوضاء لا معنى لها ، مما كان يغضبها .. فتضرب الأرض بيديها وقدميها حتى تتعب وتنام فى صدر أمها الحنون .

هكذا .. عاشت هيلين خمسة أعوام .. لم يترك والداها علاجًا إلا وجرَّباه .. ولكن جهودهما ضاعت سُدًى .. و خاصة فيما يختص بعلاج البصر .

وأخيرًا لجأ الوالدان إلى دكتور « الكسندر جراهام بل » مخترع آلة التليفون .. وأستاذ علم وظائف الأعضاء بجامعة بوسطن بأمريكا ، وله تجارب ناجحة فى علاج الصمم ، وبعد فحص طويل لحالة الطفلة هيلين ، أعلن دكتور « بل » عن فشله فى علاجها .. ولكنه أشار على الأسرة بالاتصال (بمعهد العمى) فى بوسطن لعلها تجد لديهم الحل .



حتى العروسة التى صنعتها لها خالتها لتلعب بها ضايقها ألا يكون لها عينان

لم يتوان الوالدان .. وأرسلا إلى المعهد ، وجاء الرد سريعًا بموافقة المعهد على إرسال مربية قديرة للطفلة .. حينئذ .. كانت هيلين قد بلغت السابعة من عمرها وقد نما عقلها نموًا طبيعيًا ، بل إنها أثبتت ذكاء مميزًا ورغبة ملحة فى التعلم .. ولكن قدراتها المحدودة وعجزها وقفت دون تقدمها ، وانطلاق ملكاتها ، مما كان يجعلها تبكى فى يأس وألم .

هنا تدخلت رحمة الله التى تجىء دائمًا فى الوقت المناسب ، وعندما تشتد محن الإنسان وآلامه .. فأرسلت القدرة الإلهية « آن سوليفان » المعلمة العطوف .. وكأنها ملاك الرحمة أنزل لينير حياة الطفلة هيلين بالنور والأمل والعلم .. ولتضرب المثل دومًا على إرادة الإنسان وقوته اللانهائية عندما يريد أن يحقق ذاته ويُقهر ضعفه .

أقبلت « آن سوليفان » على مهمتها هذه وكأنها تشكر الله على أن منحها هذه الفرصة .. وعرفانًا بجميل الله عليها ، إذ عافاها من المرض ، وأعاد إليها البصر .

فقد قاست « آن » الحرمان فى طفولتها وعاشت فى ملجأ للأيتام هى وأخوها الصغير .. ثم مرضت إثر موت أخيها

وأوشكت أن تفقد بصرها لولا حكمة كان يعلمها الله ، فشفيت وتحسن بصرها قليلا ..

ودرست فى معهد للعميان .. وتعلمت القراءة بطريقة « برايل » وهى الأحرف البارزة .. وقد ابتكر هذه الطريقة « لويس برايل » الذى أصيب بالعمى وسنه أربعة أعوام .. والتحق « بمعهد العميان » وسنه عشرة أعوام .. وفى هذا المعهد ابتكر طريقة سهلة للقراءة والكتابة استخدم فيها خمس نقط فقط .. وجعل لكل حرف من حروف الهجاء مقابلا لعدد معيّن من هذه النقط توضع فى نظام خاص شبيه بالنقط التى توضع على قطعة « الدّمنة » ، وبذلك أصبحت هذه الطريقة متبعة فى كتب العميان البارزة الأحرف .

وصلت « آن سوليفان » إلى بيت « هيلين » فى مارس عام ١٨٨٧.. وكانت هيلين حين ذاك فى السابعة من عمرها .. شعرت هيلين أن شيئًا غير عادى يحدث بالمنزل.. وعندما أتت « آن » أخذت هيلين تتلمس يدها ووجهها لتتعرّف على مربيتها الجديدة .

لم تكن مهمة المربية سهلة منذ البداية ، ولم يكن من اليسير إطلاقًا تعليم طفلة عمياء .. بكماء .. صماء ، لا ترى ، ولا تسمع ، ولا تتكلم . عانت « آن » كثيرًا فى أيامها الأولى من ثورات « هيلين » العارمة .. ورفضها لكل شىء .. وكان سلوكها وعاداتها شرسة وشبه متوحشة ، ولم تكن تطيع أبويها ، لذا اقترحت « آن » أن تعيش مع « هيلين » فى بيت مستقل بعيدًا عن الأسرة حتى يتسنى لها تربية وترويض الطفلة المدللة .. العاجزة .

* * *

بداية المعجزة

عاشت « هيلين » مع مربيتها في بيت صغير تحيط به الحدائق الجميلة ، والأزهار الندية .. وما إن تعودت الطفلة على مربيتها وأنست إلى وجودها حتى أحبتها حبًّا شديدًا وتعلَّقت بها ، وتكوَّنت صداقة حميمة بين الطفلة والمربية الحنون ، وكانا يتحادثان كثيرًا بالإشارات وطريقة لمس الأيدى التى يتعامل بها البكم والعميان .

وفى يوم من الأيام خرجت الصديقتان للنزهة كعادتهما كل صباح .. رأت « آن » البستانى يفتح مضخة الماء فى الحديقة فيتدفق منها الماء بقوة .. هنا خطر ببال « آن » خاطر غيَّرَ

مَجْرَى حياتهما ، وفتح أمام « هيلين » آفاقًا جديدة وأملاً فى التعلم ، إذ أخذت المربية يد « هيلين » برفق ووضعتها تحت الماء المتدفق من المضخة ، وخَطَّتْ على يدها الأخرى بأحرف كلمة «ماء»، ثم كررت ذلك عدة مرات، فأشرق ذهن الطفلة وتفتقت ذاكرتها عن كلمة عرفتها منذ سنوات، ونسيتها مع الأيام، وعرفت أن ذلك السائل البارد المنعش المتدفق اسمه «ماء».

وتغيَّرت ملامح الطفلة من العبوس إلى الفرح ، ومن الحزن إلى الأمل ، وأشرق وجهها بمرح الطفولة ، وسعادة الأصحاء .. فأخذت تقفز وتلمس التراب ، وتسأل عنه بإشارة من يدها .. وتعلمها « آن » اسمه بنفس الطريقة .

وهكذا حلّت الأيدى محل السمع والبصر فى تلقى الكلمات والجمل ومعرفة المعانى ، حتى المشاعر الإنسانية مثل الخوف .. والحب .. والرغبة ، تعلمتها هيلين » بنفس الطريقة .

وعندما شرعت « آن سوليفان » بعد ذلك فى تعليم « هيلين » القراءة لجأت إلى طريقة « برايل » مما فتح أمام هيلين آفاقا جديدة ، ونافذة واسعة على العالم الرحب .. فتعلمت الجغرافية والحساب وعلوم الأحياء .. واستفادت « آن سوليفان » كثيرًا



أخذت المربية يد هيلين ووضعتها تحت الماء
وخطت على يدها الأخرى بأحرف كلمة « ماء »

من الطبيعة الخلابة التى تحيط بالمنزل فى تعليم « هيلين » طبائع الحيوان والنبات .. ومما ساعد وشجع « آن » على المضى فى رعاية « هيلين » . وتربيتها أنها وجدت فيها من الذكاء والفطنة ما لم يتسنّ لكثير من الأصحاء . أمضت آن مع « هيلين » ثلاث سنوات تعلمت فيها الكثير من العلوم ، من الكتب تارة ، ومن الطبيعة حولهما تارة أخرى ، حتى أصبحت « هيلين » تكتب بالحروف العادية التى يستخدمها الأصحاء .. لقد صبرت وثابرت حتى وصلت إلى هذه المرحلة من التعلم ، غير أنه مما كان يحزن هذه الفتاة الشجاعة أنها لا تستطيع النطق .

لم يكن عجز « هيلين » عن النطق نتيجة عجز فى أعضائها ، ولكنه نتيجة حرمانها من السمع ، فالكلام ما هو إلاّ تقليد للأصوات المسموعة .. لذا لم تيأس « هيلين » ، وذهبت الطفلة ذات الأعوام العشرة مع مربيتها إلى معهد للصم فى بوسطن .. وهناك بدأت المدربة تعليمها النطق بالتعرف على الحروف الهجائية منطوقة ، وذلك بأن تضع يدها على وجهها ولسانها وحلقها لتعرف موضع كل منهم فى أثناء نطق كل حرف على حدة .. لم تكن المسألة بهذه البساطة .. كان التدريب شاقًّا ، والطريق

طويل .. فشلت فأعادت المحاولة .. ثم حاولت مرة أخرى وهكذا .. حتى تعلمت ستة أصوات ، وكانت أول عبارة نطقتها بصوت غامض .. والسرور يملؤها ويغمر معلمتها هى « الجو دافىء » .. كان صوتها مضطربًا ، وكلماتها مبهمة ، ولكنها كلمات إنسان حرر نفسه من القيود ، وارتقى إلى ميدان المعرفة والثقة بالنفس .

* * *

انطلاقة بلا حدود

بدأت « هيلين » تزاول التعبير بالكتابة إثر اعتناء مربيتها « آن » بها وتثقيفها إيّاها .. فكتبت تراسل أقاربها وأصدقاءها في معهد الصم .. وكان أول ما كتبت بمعونة إطار خاص وخط مستقيم بارز مشرشر ، يضبط الكتابة ، ويساعد المكفوف على تلمس طريقه . ثم كتبت وهي في الحادية عشرة من عمرها قصة بعنوان « ملك الصقيع » وكم كانت تشعر بالسعادة والفخر وهي تقدمها لمدير المعهد سنة ١٨٩٢ وقد شجعها ذلك على سرد قصة حياتها لتنشر في مجلـة « رفيق الشباب » بعد ذلك .

لم تتميز كتابة « هيلين كيلر » وهى لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها بسلامتها من عيوب النحو ، ولكنها تميزت بالانسجام فى التعبير والأسلوب السلس ، والخيال الواسع ، وقد أدهش ذلك كل من حولها ، مما شجعها على الاستمرار فى المحاولة .

التحقت « هيلين كيلر » بمدرسة الصم فى نيويورك سنة ١٨٩٤ متمنية إجادة النطق والإلقاء ودراسة قراءة الشفتين وفى هذه المدرسة تعلمت « هيلين كيلر » اللغة الألمانية وأتقنتها ، ودرست الفرنسية والجغرافيا والحساب ، وإن كان من الصعب عليها دراسة مادة الحساب لصعوبتها . كان من أسباب إتقانها للغة الألمانية أن مدرسة تلك اللغة كانت تجيد التحدث معها بحروف الهجـاء اليدوية ، أما مدرسة اللغة الفرنسية فكانت تعلمها بطريقة قراءة الشفتين .. قضت « هيلين كيلر » سنتين فى هذه المدرسة تمهيدًا لدخول المدرسة الثانوية الخاصة بالبنات الأصحاء .

وقد أتاحت لها هذه المدرسة سنوات ممتعة من الرحلات العلمية وزيارة المتاحف ، والاشتراك فى الحفلات الترفيهية .

وبالرغم من الصعوبات التى واجهتها « هيلين » فى بعض المواد الدراسية — حيث إنه لم يكن من السهل الحصول على كتب مدرسية فى هذه المواد مطبوعة بالأحرف البارزة ، كما لم يكن نطقها طبيعيًّا يفهمه المدرسون دائمًا — فإنها تحملت وصبرت لتحقيق أهدافها .

وفى عام ١٨٩٧ دخلت « هيلين » الامتحان التمهيدى ، ونجحت فى جميع المواد الدراسية ، نجحت فى الإنجليزية ، والألمانية بدرجة امتياز ، والغريب فى ذلك أن « هيلين » قامت بنفسها بكتابة الإجابات على الآلة الكاتبة العادية بعد أن قرأ عليها ناظر المدرسة الأسئلة عن طريق التهجى اليدوى . وبذلك أصبح الطريق إلى كلية « رادكليف » الملحقة بجامعة هارفارد هو أمل « هيلين » الجديد .

وكان على « هيلين » أن تقضى عامًا آخر من الدراسة لكى تدخل كلية « رادكليف » ، لذا انصرفت « هيلين » بكل طاقاتها وطموحها للدرس والتحصيل مصممة على التحدى وتحقيق المستحيل ، وفى عام ١٨٩٩ ، وفى موعد الامتحان ، لم يُسْمَحْ لمربيتها بمرافقتها ، أو قراءة الأسئلة لها ، وانتدبت



كت ترافق هيلين مربيتها آن سوليفان تخط على يديها المحاضرت

الكلية من يقوم بذلك ، واجتازت « هيلين » الامتحان بنجاح ، برغم كل الصعوبات التى واجهتها وتغلبت عليها . ودخلت « هيلين » الكلية التى طالما داعبت أحلامها . وتفتحت أمام « هيلين » حياة جديدة ، كلها عمل وجد . كانت ترافقها دائمًا مربيتها « آن سوليفان » — رفيقة مشوار حياتها — تخط على يديها المحاضرات فى سرعة عجيبة .. كما كانت تلجأ كثيرًا إلى المراجع التى لم تكن مكتوبة دائمًا بطريقة « برايل » .

وفى هذه الجامعة درست « هيلين » الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وقرأت روايات « شكسبير » ، وأشعار « جون ملتون » و « موليير » و « جوته » ، ودرست التاريخ الرومانى ، وعاشت بخيالها مع أبطاله ، كما درست فلسفة اليونان ، والقرون الوسطى ، وعصر النهضة ، والأساطير الإغريقية .. وقد كان لهذه الدراسات تأثير رائع على « هيلين » ، فقد ارتقت بأفكارها الفلسفية ، وعاشت فى عالم من القيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية السامية .

* * *

هوايات هيلين كيلر

لم تشغل الدراسة هيلين عن الاستمتاع بحياتها ، فكانت تخرج كثيرًا إلى الخلاء ، لتتمتع بأشعة الشمس ورائحة الأزهار الذكية ، كما تعلمت السباحة والتجديف ، وقد قضت أوقاتها سعيدة فى ركوب الزوارق . وبالرغم من فقدانها البصر كانت تستمتع بضوء القمر ، وتراه بخيالها ، ونسمات الليل تداعب شعرها كأى إنسانة سَوِيّة .. وتعبر هيلين كيلر عن ذلك فتقول

« أنا أُحب الريف من صميم قلبى .. وكثيرًا ما كان يتعجب البعض كيف أفرق بين الريف والمدينة ، ولكنهم ينسون جسمى ككل « حى » يحس المظاهر التى حولى ، فالضجيج



كانت « آن سوليفان » تصحبنى إلى المسرح وتصف لى الروايات التى تمثل

فى المدينة يثير أعصابى وأشعر بصخب الآلات التى لا أراها ، أما فى الريف فأستمتع بالشمس والهواء .

« وأنا أجد سعادة كبيرة فى ركوب الدراجات ، وخاصة عندما تداعب الريح وجهى ، وكثيرًا ما كنت أصطحب كلبى معى فى نزهة ، سواء على الأقدام ، أو على الدراجة ، أو فى قارب نهرى .

كما كنت أستمتع بأشغال الإبرة والتريكو والشطرنج ، فكانت رقعة الشطرنج السوداء أعلى من الرقعة البيضاء ، أما قطع اللعب البيضاء فقد كانت أكبر من السوداء ، وهكذا أمكننى ممارسة اللعبة بنجاح .

وكنت أحب أن ألتقى بالأطفال ، وأستمع إليهم بلمس شفاههم ، كثيرًا ما أقع فى بعض الأخطاء التى تضحكهم منى ، ولست أجد فى ذلك غضاضة كبيرة ، بل أتقبل توجيهاتهم فى صبر وبدون ملل » .

ومن الأماكن التى كثيرًا ما كانت تتردد عليها : المتاحف ، ودور الآثار ، ومعارض الفن ، وليس من الغريب أن تستطيع تلك الأيدى الرقيقة أن تقيِّم الأعمال الفنية الخالدة لكبار رجال



كانت هيلين تُقيم الأعمال الخالدة بلمسة من يديها الرقيقة
على التماثيل الحجرية فى المعارض

الفن من لمسة للرخام البارد ، أو التماثيل الحجرية في تلك المعارض .

وقد كان الزائرون لغرفة « هيلين » يجدون صورة بارزة لهوميروس معلقة على حائط غرفتها ، فقد كانت « هيلين » تعشق أغانيه وأشعاره عن الحياة والحب والحرب ..

وفى مذكرات هيلين كيلر نجد هذه الفقرة التى تقول : « ... ومما يدخل على نفسى البهجة مشاهدة المسرحيات ، وكانت « آن سوليفان » تصحبنى إلى المسرح ، وتصف لى الروايات التى تُمثل ، فيبدو لى أننى أُعيش حوادثها المثيرة . وعندما كنت فى الثانية عشرة من عمرى قابلت كثيرًا من الممثلين والممثلات ، وسمح لى بعضهم أن أتحسس وجهه وهو يمثل الانفعالات المختلفة التى يقوم بأدائها ، وأسعدنى كثيرًا أن يفهموا بعض الكلمات القليلة التى قلتها » .

وليس غريبًا بعد ذلك أن نجد هيلين وقد لجأت – فى بعض مراحل عمرها – إلى التمثيل فى بعض المسارح المتنقلة بهدف كسب الرزق والعيش دون طلب المعونة من الآخرين .

* * *

رسالة إنسانية

في عام ١٩٠٤ نالت « هيلين كيلر » درجة البكالوريوس في الآداب ، وتحقق بذلك حلمها في الحصول على العلم والمعرفة ، لأنها قد أدركت أن بهما فقط تستطيع التمييز بين الهدى والضلال ، وبين الحق والباطل . ولم يكن العلم هو غاية هدفها في الحياة ، بل لقد علمتها التجارب والآلام النفسية التي عانتها ، والحرمان من السمع والبصر ، والتمتع بنور الحياة ، وتلك الليالي التعيسة التي قضتها في ظلمة حالكة ووحدة موحشة أن هناك رسالة سامية يجب أن تؤديها وهي أن تنقذ هؤلاء المعذبين المحرومين من نعمة السمع والبصر .. فأصبحت

تناشد أصحاب البر والخير فى كل مكان المعونة . لمساعدة هؤلاء المحرومين ، كما استطاعت إقناع مدير صحيفة « العالم الكبير حولنا » بإخراج طبعة خاصة للعميان مكتوبة بالأحرف البارزة . وقد أدركت هذه الإنسانة الذكية الصلبة أنها لن تستطيع أن تحقق النجاح الذى ترجوه فى هذا الميدان إلا إذا قامت هى بنفسها بالاتصال المباشر بالجماهير ، وحثهم على التبرع بالمال ، وتأسيس الجمعيات الخاصة بالعمى والبكم .

لذا عاودت هيلين التدريب مرة أخرى على النطق السليم واستحضرت مدربًا موسيقيًّا لمساعدتها ، واستمرت فى التدريب ثلاث سنوات أخرى حتى حققت بعض التحسن .. ربما لم تحقق النجاح الذى كانت تتمناه ولكنه نجاح أكسبها الثقة بنفسها ، وهكذا انهالت عليها الدعوات من الأندية والجمعيات الخاصة ومعاهد الصم والبكم ، وأعطت من نفسها مثلا رائعا لإنسانة فقدت أهم حواسها ولكنها لم ترض بعجزها بل قاومته ونجَحت ، وازدحمت قاعات المحاضرات للالتقاء بها .. وكم كانت تؤثر فى الحاضرين ليس بثقافتها وغزارة علمها

فحسب بل بقوة إرادتها ورقة أحاسيسها فى مشاركتها المرضى المحرومين آلامهم وشقاءهم .

وفى عام ١٩١٣ سافرت « هيلين » إلى كندا ، ومعظم ولايات أمريكا ، وأقيمت لها حفلات التكريم ، واستُقبلت بكل الحفاوة والإعجاب فى كل مكان . واستمرت « هيلين » فى الدعوة لمساعدة المرضى البؤساء ، وتحقق حلمها عام ١٩١٧ عندما تأسس – بفضل جهودها – « مؤسسة العميان الأمريكية » ثم تبعها بعد ذلك سنة ١٩٢١ تأسيس جمعية عامة لرعاية جميع العميان فى الولايات المتحدة ، وقد أسرع ذوو المروءة والخير من الأثرياء وغير الأثرياء بإمداد هذه المؤسسات بالمال اللازم لرعاية المكفوفين .

لم تسترح « هيلين » ولم تلن فى نشر دعوتها .. بل كانت تود أن تجعل من الأمل الذى فى نفسها نورًا يشع بالخير على الإنسانية جمعاء وليس فى أمريكا فقط .. من أجل ذلك أخذت « هيلين » تجوب العالم . وفى عام ١٩٣٠ زارت القارة الأوربية ، وسافرت إلى النمسا ، وفرنسا ، وسويسرا ، ويوغسلافيا ، واسكتلندا ، ولندن ، والتقت فى كل مكان

بشخصيات كبيرة فى هذه الدول ، وبأصدقاء عرفتهم من قبل ، وآخرين تمنوا لقاءها ، ونادت «هيلين» فى كل بلد تحل به بأهمية تأسيس جمعيات لرعاية المكفوفين والصم والبكم .. كما كانت تزور معاهد هؤلاء المرضى ، وتقدم نفسها لهم مثلاً رائعًا للكفاح والإرادة البشرية ، والتحدى لأى معوقات .

طافت « هيلين كيلر » ، هذه المرأة الشجاعة ، بمشارق الأرض ومغاربها تُلقى المحاضرات ، وتعقد المؤتمرات فى الأندية ومعاهد العميان ، وتنادى برعاية المكفوفين .

* * *

حزن وأسى

كان القدر يحمل لهذه الإنسانة الرقيقة العذبة مالا يتحمله الأضحاء ، ففى عام ١٩٣٦ فقدت «هيلين كيلر» أعز مخلوق لديها فى الحياة، فقدت مربيتها وصديقتها ورفيقة حياتها التى عاشت معها مايقرب من نصف قرن.. فقدت السند والحب والوفاء.

حزنت « هيلين » حزنًا شديدًا ، وتألمت لفراق رفيقة شقائها وسعادتها ، رفيقة طفولتها وشبابها وشيخوختها .. يقول الطبيب الذى عالج « هيلين كيلر » بعد موت « آن سوليفان » : « إن « هيلين » فقدت نصف روحها .. وإنه من النادر جدًا

وجود مثل ذلك الانسجام الروحى ، والحب النقى بين مخلوقتين فى العالم » .

كادت « هيلين » تفقد حياتها ، ولكنها تحدت حزنها مدركة أهمية الرسالة التى تحملها إلى ملايين البشر من الصغار والكبار ومن المرضى والأصحاء .

من أجل هذه الرسالة تحدت « هيلين » فجيعتها وأخذت تجوب العالم مرة أخرى ، تثبت للناس فى كل مكان أن لا شيء فى الحياة اسمه المستحيل ، وأن فى الحياة متسعًا للجميع، للمبصر والأعمى ، للكبير والصغير .. زارت « هيلين » كندا ، وفرنسا ، ويوغسلافيا ، والشرق الأقصى ، واليابان . وكانت هذه الزيارات هى البلسم الروحى لمئات بل لآلاف من المرضى فى جميع أقطار العالم ، تُلقى المحاضرات ، وتجمع التبرعات لصالح الصُّمِّ والبُكم .

كانت فى كفاحها من أجل قضيتها رسولَ رحمة للإنسانية جمعاء .

لم تنس « هيلين » لحظة قضايا العالم المحيط بها ، خاصة فى الحربين العالميتين : الأولى والثانية ، فقد عاصرتهما « هيلين » ..

ولم تتحمل أن تقف صامتة أمام هذه الحروب المروعة ، فأخذت تحذر الناس من ويلاتها ، وكرست جهودها فى مواساة ضحايا الحرب من المجروحين والمشردين ، وراحت تزور المستشفيات ، وتجمع الأموال ، وتنظم لهم الحفلات لرعايتهم والترفيه عنهم .

عندئذ كانت « هيلين كيلر » فى السادسة والستين من عمرها ، وأصبحت عضوة شرف فى كثير من الجمعيات العالمية لرعاية العميان .. وكان لها أصدقاء من كبار الشخصيات فى جميع أنحاء العالم ، أمثال ويليام جيمس عالم النفس الشهير ، وجراهام الكسندر بل مبتكر آلة التليفون ، ومارك توين الكاتب الشهير ، والرئيس ولسون ، والجراح الإسكتلندى جيمس لوف ، والفيلسوف الشاعر الهندى طاغور . وقد كان بعضهم أصدقاء لها منذ كانت فى الثانية عشرة من عمرها .

كان للشرق الأوسط نصيب من اهتمام هذه السيدة المعجزة ، فقد زارت « هيلين » مصر سنة ١٩٥١ ، وحاضرت فى الإسكندرية فى قاعة دار الحكمة ، وقد حضر هذه الجلسة عدد كبير من مثقفى شعب مصر . وقد عبّرت « هيلين » عن

سعادتها البالغة بهذه الزيارة بقولها : « يسعدنى أن أكون بينكم فى أرض الأهرام ، تلك الأرض التى يرجع تاريخها غائرا فى القرون آلاف السنين .. ويسعدنى أن أعرف أن نسبة المكفوفين فى مصر قد انخفضت فى خلال السنوات العشر الماضية بفضل ما تبذله الحكومة المصرية من رقابة وإنشاء مراكز صحية لرعاية العيون ، وإعداد عيادات متنقلة لعلاج الأمراض .. وهذه خطوة إلى الأمام فى سبيل تحسين الأحوال الصحية للسكان ، ولكنها خطوة غير كافية ، لأن أمراض العيون المروعة لا تزال تفتك بالمصريين ، علمًا بأن نسبة كبيرة من المكفوفين يمكن إنقاذهم لو هُيئت لهم أسباب الوقاية ووسائل العلاج . إن الفقر والجهل والطمع هى الأعداء البغيضة للبشرية ، ولذا عليكم — معشر المصريين — أن تنقذوا مواطنيكم من أن يصبحوا تائهين فى دنيا من الظلام الدامس ، وعلى المصريين أن يوفروا موارد مالية كافية ، ويعملوا على إنشاء مراكز أخرى لأمراض العيون .

ولابد من إعداد الممرضات والجراحين ومساعديهم . إن التربية يجب أن تهدف إلى إعداد الشباب ليكونوا شجعانًا مستقلين فى تفكيرهم ، قادرين على الاضطلاع بتبعاتهم فى

الحياة ، فعلموهم كيف يهتدون إلى ضالتهم . والثقافة لا تعرف عداوة لشعب ما ، لأن كل ثقافة تحمل الخير بين طياتها » .

هكذا عاشت «هيلين كيلر» عمياء، لكنها رأت أكثر مما يراه المبصرون من خلال أحاسيسها المرهفة، وقراءتها المتنوعة، وجولاتها حول العالم .

قال عنها الفيلسوف المعروف مارك توين: «إنَّ أدعى الشخصيات فى القرن العشرين للاحترام شخصيتين هما: نابليون وهيلين كيلر» وكتبت هيلين كيلر عن عجزها: «الناس جميعًا عاجزون عن رؤية الخالق وسماع صوته الأزلى، فالأعمى والمبصر، والناطق والأخرس، متساوون فى ذلك، ولكن الإنسان السعيد هو الذى يشعر بوجود الخالق، ويسمع صوت الحق بفكره وقلبه وحسّه» .

* * *

إبداعات هيلين كيلر

كانت حياة « هيلين كيلر » حياة خصبة ، مليئة بالمعانى الجميلة ، والقيم الأخلاقية السامية ، والمثل العليا .

ومنذ سنوات الطفولة واللحظات الأولى فى حياتها . والتى عانت فيها الحرمان ، وأدركت معنى أن يعيش الإنسان عاجزاً ، وهبت نفسها لعمل الخير ، ومساعدة المحرومين ، ومناشدة الأثرياء والأصحاء لمساعدة المعاقين .

كانت مؤمنة أشد الإيمان بوجود الله وقدرة الخالق .

وعن ذلك عبرت « هيلين » فى مذكراتها بقولها : « الثقة سلاحنا القوى ، والإيمان كذلك ، وليس من الصعب غرسهما فى النفوس . الثقة ترفع من شأن النفوس وتخلقها خلقًا جديدًا ، وتلقى على عاتقها مسئوليات خطيرة ، فمن كان قلبه عامرًا بالثقة والإيمان فهو الشجاع الذى لا يهاب شيئًا .. إنهما يدفعان الإنسان دفعًا نحو تحقيق أمانيه ، وبلوغ آماله ، مهما كانت الطريق وعرة وشاقة ، ولست أعنى بالإيمان الراحة والاستسلام ، ولكنى أعنى العمل والنشاط ، فإذا كنت مؤمنًا بحياتك ومستقبلك وجب عليك أن تواجه الواقع المر والشر بقوة وشجاعة ، لأن الإيمان لا يعترف باليأس والتخاذل » .

وبهذه الثقة ، وهذا الإيمان ، والأمل أعطت درسًا عظيمًا للمرضى والأصحاء .. وبهذا العقل الواعى عبرت عن فكرها وأبدعت فى التعبير .

ففى عام ١٩٠٠ طبعت « هيلين » أول نسخة من مؤلفها الأول فى جريدة نسائية قبل أن تتخرج فى الجامعة ، وقد اشترت بقيمة الكتاب دارًا ريفية جميلة عاشت فيها سنوات طوالا مع « آن سوليفان » .

ثم أصدرت مؤلفها قصة حياتي » وهي في عامها الثالث والعشرين .

وفي عام ١٩٠٣ أصدرت مؤلفا هاما وهو « التفاؤل » ..

وفي عام ١٩٠٨ أصدرت المؤلف الرائع « العالم الذى أعيش فيه » .

وفي عام ١٩١٠ أصدرت مؤلف « من الظلام » .

وفي عام ١٩٢٧ أصدرت مؤلف « ديانتى »

في عام ١٩٣٠ أصدرت « حياتى التالية » .

وحصلت هيلين كيلر على شهادة الدكتوراه من جامعة « تمبل » في « فيلادلفيا » وكان موضوعها (الرسالة الإنسانية) .

كما منحتها جامعة جلاسجو في اسكتلندا شهادة الدكتوراه الفخرية في الحقوق عام ١٩٣٢ .

كما أصدرت كتاب « السلام عند الغروب » عام ١٩٣٣ .

وفي عام ١٩٣٨ أصدرت « يوميات هيلين كيلر » .

ثم أصدرت عام ١٩٤١ « ليكن عندنا ثقة وإيمان » .

وقد لاقت « هيلين كيلر » كل الإعجاب والتقدير فى جميع أقطار العالم .. كما مُنحت عدة جوائز وميداليات تقديرًا لنبوغها وخدماتها . ومُنحت الوسام اللبنانى المذهب سنة ١٩٥٢ عند زياراتها للشرق الأوسط كمحاضرة .

وفى عام ١٩٥٥ طافت الدكتورة « هيلين كيلر » العالم للمرة الأخيرة ، فقامت برحلة إلى أوربا . والشرق الأدنى والهند .

وفى يوليو سنة ١٩٥٥ احتفلت الولايات المتحدة حكومة وشعبًا بمرور خمسة وسبعين عامًا على مولدها ، وأرسل الرئيس إيزنهاور – رئيس أمريكا حين ذاك – يهنئها بالمناسبة السعيدة .

لم تتوقف « هيلين » عن العطاء ، ولم يتوقف قلبها عن النبض بحب ملايين البشر ، وشعورها بالمسئولية نحوهم ، فأخرجت عام ١٩٥٦ كتابًا عن حياتها ومُدرّستها ، بيّنت فيه أثر هذه المربية الجليلة فى حياتها وتكوينها .

سُئلت « هيلين كيلر » ذات يوم :

لو أن لك أمنية تطلبين تحقيقها ، فماذا تكون ؟

أجابت :

« السلام للعالم ، والصفاء للناس »

هكذا عاشت « هيلين كيلر » تعطى بلا حدود .. إنها معجزة عصرنا ، وفخر للشعوب ، وأمل للطفولة المعذبة ، ومثال للجهاد والإيمان .. لم تنحصر أمنيتها فى طلب شىء لنفسها ، هى المحرومة من أعز ما يهبه الله لخلقه ، بل أنكرت ذاتها ، وفكرت في خير الإنسانية ، فما أروعها فى نكران ذاتها ، فى عصر طغت فيه الأنانية .

فكانت رسالة « هيلين كيلر » للعالم فى كلمات قليلة :

« إننى أحاول أن
أجعل شمسى الداخلية
ضوءا فى عيون الآخرين،
وسعادتى النفسية
بسمات على شفاههم » .
« هيلين كيلر »

الفهرست

رقم الإيداع		١٩٩٤ / ٣٠٧٦
الترقيم الدولى	977 – 02 – 4445 – 7	ISBN

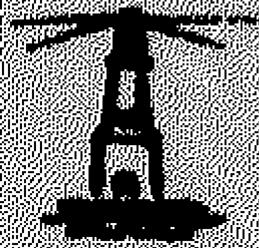
٧ / ٩٣ / ١٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

عظماء
عاشوا بالأمل

• نماذج من العظماء العباقرة الذين فقدوا واحدة أو أكثر من حواسهم.. لكنهم ضربوا المثل فى التمسك بالأمل.. وتحدى هذا الفقد.. والإصرار المتميز.. ربما أكثر من الأصحاء.

١ - توماس أديسون
٢ - أبو العلاء المعرى
٣ - فرانكلين روزفلت
٤ - محمود أبو الوفا
٥ - هيلين كيلر
٦ - صبحى الجيار
٧ - الجاحظ
٨ - حسان بن ثابت
٩ - اليزابيث براوننج
١٠ - لويس بريل
١١ - عبد الرحمن بن عوف
١٢ - طه حسين
١٣ - حسين القبانى
١٤ - بيتهوفن



دار المعارف